تاريخ استخدام الدبابات
في جيش المسلمين

للأديب عطا الله ترزي باشي

يرجع تاريخ استخدام الدبابات في الحروب إلى وقت نشوء المجلات الحربية . وقد وجد في العراق كثير من التصاوير التي تكشف لنا عن وجود المجلات غير الحربية منذ سنة (٢٠٠٠) قبل الميلاد ، أما الحربية منها فوجدت في الصين سنة (١٤٥٠) ق. م. وظهر بنتيجة البحث والتدقيق أن استخدام الدبابات لأول مرة في التاريخ كان في إحدى الحروب الدائرة بين المصريين والميتانيين (الانسيكلوبيديا التركية «اينونو» ، ج ٣ ، ص ١٩٥، سنة ١٩٤٩) .

وفي الواقع كان المصريون القدماء أول من استخدموا الدبابات في الحروب ، ومن بعدهم الآشوريون فاليونانيون القدماء ومن بعدهم العرب (تاريخ التمدن الإسلامي ، جرجي زيدان ، ج ١ ، ص ١٦٠).

وكان المسلمون يتخذون الدبابات لسائق أسوار العدو ، وهي آلات من الخشب الصفيق ، وقد تكون طباقاً ، وتغلف بالجلود المنقوعة في الخل لدفع النار . وتركب على عجل مستدير يدفعها الرجال ويصعد الجند في أعلاها ويستعملون على السور . وقد يستخدمون الدبابات لهدم الأسوار فيسيرونها ويحتمون بجدرانها ويجعلون رأسها حديداً يصدمون بها الأسوار حتى تهدم (المرجع السابق) .

وقد استخدم المسلمون الدبابات لأول مرة في السنة الثامنة من الهجرة أثناء غزوة الطائف (أحمد رفيق ، الغزوات النبوية ، حاشية ص ٤٥) .

وكذلك جاء ذكر هذه الآلة في كتاب آخر للأستاذ نفسه (باللغة التركية) وهو كتاب (تاريخ الانتصارات العثمانية) نقلا

الأمم عندما امتد الانتداب البريطاني على العراق خمس وعشرين سنة تالية ، واشتركوا في مؤتمر الخلافة سنة ١٩٢٥ واحتجوا لدى الفرنسيين يوم أن ضربوا دمشق بالمدافع ... ... وكانوا ولا يزالون يتألمون لما يصيب إخوانهم عرب مراكش وتونس والجزائر من ذل يفرضه عليهم المستعمر الغاشم .

وأنى لأؤكد أن الباكستان في قومتها دولة إسلامية لم تقم لخدمة بنيها فقط ، وإنما قامت لخدمة الإسلام أنى وجد ، فكثيراً ما كانت تناغض انجلترا لإصدارها وعد بلفور بصدد فلسطين . وكثيراً ما حاولت انقاذ هذه البلاد من مخالب الصهيونيين لأنها تؤمن بأنها بلاد تهم المسلمين أجمعين . ولا أظنني أخالف الواقع إن قلت إن زعيمنا الخالد الذكر محمد علي جناح كان ينذر العالم الإسلامي منذ قديم الزمان باحتمال قيام الخطر الصهيوني ، وها قد تحققت مخاوفه ، وأصبحنا نرى نذر الخطر تبني الانقضاض علينا . الحق يحضنا على ذلك فقد ورد في القرآن الشريف « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » وليس هناك إلا تقوية الجيوش وحشد القوات ، لأن هذه هي اللغة الوحيدة التي يفهمها العالم اليوم وليس هناك إلا إنشاء المصانع وعمل الذخائر ، فنحن اليوم في عالم خلا من وازع الضمير ، وضاع فيه معنى الحق ومعنى الشرف وأصبحت الكلمة للدافع والهيبة للقوي ؟ فإذا يعتنا والحالة هذه أن نعمل لهذه القوة وما الذي يحول دون بلوغنا هذه الغاية ؟

لقد آمنت الباكستان بكل هذا وراحت تقوي جيوشها وأساطيلها ، وليس معنى هذا أنها تطلب سيادة أو تريد إيقاع العدوان على أحد ، بل هي تريد أن تبقى محترمة مرهوبة الجانب لا قد يهددها ، وتضرب من يهاجمها ... ...

توخيت في هذه العجالة أن أبين مدى ارتباط الباكستان بالشرق ، وكيف نريد ونأمل أن يكون عليه هذا الأخير من قوة ومنعة ، لأننا نريد للاسلام رفعة الشأن وقوة الجانب ، وليس هناك للاسلام موطن ، وليس له حدود ... ...

واجب أن أنوه بأن كلامي هذا لا يشتم منه رائحة العنصرية ولا المذهبية ، وأريد أن أزيد بأنني لست متعصبا ضد أية ديانة أو مذهب ، وإنما أنا متعصب لديني ، ومتعصب لبلادي أريد لها ولمن يشترك معها أن يترسموا الطريق نحو العزة والسؤدد وأن يصلوا إلى المكانة العليا التي يهيؤها لهم إيمانهم ودينهم وتسامحهم ... ... و « ويرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات » .

حسين الهاشمي

عن كتاب (كوكب السعود فى كوكبة الجنود لابن إسحاق. ص ٧٧). إنه فى غزوة الطائف استخدم المسلمون الدبابات المصنوعة من جلود الأبقار التى لا تتأثر كثيراً بمقذوفات العدو، وتقدموا بها نحو السور لإحراق الأمكنة المجاورة له. غير أن أفراد قبيلة ثقيف المحصورين فى البلدة بدأوا يرمونها بقطع من الحديد المحماة بالنار ... (حاشية ص ٢٥٠، ٢٥١ من المرجع السابق).

ويبحث الأستاذ محمد حسين هيكل فى كتابه «حياة محمد» عن استخدام المسلمين الدبابات فى غزوة الطائف بشىء من التفصيل، فيقول:

إنه لم يكن من اليسير أن يقتحم المسلمون هذه الحصون المنيعة إلا أن يلجؤا إلى وسائل غير التى ألفوا حتى اليوم حين حاصروا قريظة وخيبر ... فما عسى أن تكون هذه الوسائل الجديدة التى يهاجمونها بها؟ ...

وكان لبنى دوس (إحدى القبائل المقيمة بأسفل مكة) علم بالرماية بالمنجنيق ومهاجمة الحصون فى حماية الدبابات. وكان أحد رؤسائها الطفيل قد صحب محمداً منذ غزا خيبر؛ وكان معه عند حصار الطائف؛ فأوفده النبى إلى قومه يستنصرهم؛ فجاء بطائفة منهم ومعهم أدواتهم؛ فبلغوا الطائف بعد أربعة أيام من حصار المسلمين إياها. ورمى المسلمون الطائف بالمنجنيق وبعثوا إليها بالدبابات فدخل تحتها نفر منهم ثم زحفوا بها إلى جدار الطائف ليخرقوه، ولكن رجال الطائف كانوا من المهارة بحيث أكرهوا هؤلاء على أن يلوذوا بالفرار. فقد أحموا قطعاً من الحديد بالنار، حتى إذا انصهرت ألقوها على الدبابات فحرقتها، فخرج جنود المسلمين من تحتها خيفة أن يحترقوا. (حسين هيكل، حياة محمد، ص ٤٢٠، ٤٢١).

ويظهر أن الدبابات فى السابق وإن كانت لها قيمة كبرى فى الحروب لإخافة العدو وإثارة ضجيجهم، فإنها لم تنل حظاً فى إحراز النصر حيث كانت عرضة للاحتراق، فإن موادها المركبة من الجلود والأخشاب كانت سريعة التأثر بالنار. وقد حاول المهندسون المسلمون مبتدعاً إيجاد بعض الوسائل لتقيها من الأخطار المعهودة. فاستعملوا الجلود المبلولة بالماء والمسقاة بالخل ولكنهم لم يفلحوا.

٤٢ ٣٣

ويحدثنا الأستاذ أحمد بدوى فى مقال له تحت عنوان «القوة الحربية فى مصر والشام» كتبه فى مجلة الرسالة عدد ٨٠٩ وتاريخ ١٤ — مارت — ٩٤٩ نقلا عن (النوادر لابن شداد، ص ١٠٣) عن عظمة الدبابات التى استخدمها العدو فى حصار عكا، بما يلى:

«صنع العدو ثلاثة أبراج من خشب وحديد وألبسها الجلود المسقاة بالخل بحيث لا تنفذ فيها النيران؛ وكانت هذه الأبراج كأنها الجبال عالية على سور البلد، ومركبة على عجل يسع الواحد منها من المقاتلة ما يزيد على خمسمائة نفر، ويتسع سطحها لأن ينصب عليه منجنيق، وقد ملأ ذلك نفوس المسلمين خوفاً ورعباً، ويئس المحاصرون فى المدينة، ورأوها وقد تم عملها ولم يبق إلا جرّها قرب السور. وأعمل صلاح الدين فكره فى إحراقها ووعدهم على ذلك بالأموال الطائلة والعطايا الجزيلة، ولكن ضاقت حيلهم عن ذلك. وكان من جملة من حضر شاب نحاس دمشقى ذكر بين يديه أن له صناعة فى أحراقها وأنه إن مكن من الدخول إلى عكا وحملت الأدوية التى يعرفها أحرقها، فحصل له جميع ما طلبه، ودخل إلى عكا وطبخ الأدوية مع النفط فى قدور نحاس حتى صار الجميع كأنه جمرة نار، ثم ضرب واحداً بقدر فلم يكن إلا أن وقعت فيه، فاشتعل من ساعته ووقته، وصار كالجبل العظيم من النار طالعة ذؤابته نحو السماء واستغاث المسلمون بالتهليل، وعلاهم الفرح حتى كادت عقولهم تذهب. وبينما الناس ينظرون ويتعجبون إذ رمى البرج الثانى بالقدر الثانية فما كان إلا أن وصلت إليه واشتعل كالذى قبله فاشتد ضجيج الفئتين، وما كان إلا ساعة حتى ضرب الثالث فالتهب وغشى الناس من الفرح والسرور ما حرك ذوى الأحلام».

وحسب ما نعلم كانت هذه المواد هى زيت النفط والكبريت والجير والقار فتتكون من خلطها النار اليونانية. وقد أشار إلى استعمال المسلمين هذه النار فى الحروب الصليبية الأستاذ كوستاف لوبون فى كتابه (المدنية العربية، ص ٥١٤، ٥١٥).

ويروى الأستاذ أحمد بدوى فى المقال السابق الذكر نقلا عن (خطط المقريزى، ج ١ ص ٣٤٧) أن الفرنج هاجموا دمياط سنة ٦١٥ فى آخر أيام العادل وعملوا آلات ومرمات وأبراجاً متحركة